لماذا يكثر العميان في وادي النيل

اذا كان لا بدَّ لكل معلولٍ من علة فلا ريب ان لكثرة العميان في وادي النيل علة لا يليق باولي العلم اهمال البحث عنها ومتى وجدت لا يجدر باولي الامر التقاعد عن ايجاد الوسائط لازالتها او تلطيفها على الاقل . والحقيقة ان لكثرة امراض العين وكثرة العميان في هذه البلاد عللاً كثيرةً لا علة واحدة كما سنوضح ذلك . غير انهُ وان كانت كثرة امراض العيون قد بلغت في مصر حدًّا يُضرب بهِ المثل فليست مصر البلاد الوحيدة في المنطقة الحارة التي تكثر فيها تلك الامراض بل على سطح الكرة اماكن اخرى في هذه المنطقة او على مقربةٍ منها كبلاد العرب والهند وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وفي تلك البلاد تكثر ايضاً امراض العيون ويكثر العميان لا لمجرد وقوعها في المنطقة الحارة بل لاسباب اخرى جمَّة سنأتي على بيانها . غير ان تلك الاسباب تختلف في الزيادة والنقص باختلاف تقهقر البلاد او تقدمها في العلم والمدنية والعمران والثروة . ولا شك ان كثرة العميان ضربة من اشد الضربات وعلة من اقوى العلل التي تعيق البلاد في سبيل الارتقاء . ولا بدَّ لنا اذا اردنا تخفيف وطأة امراض العين في مصر ان نبحث عن اسباب هذه الامراض وشدة وطأتها لنتقيها او على الاقل نخفف مضارها

وقبل الخوض في الموضوع اقول كلمةً لكل من يقرأ هذه السطور راجياً منهُ ان يعمل بها وهي ان يفيد بما سيقرأهُ الاميين المحيطين بهِ الذين لا يدركون فائدة اتقاء الشرور ولا يعرفون للنظافة قيمة وفيهم تكثر الامراض بوجه العموم وامراض العين بوجه خاصٍّ وهم الفئة التي لاجلها نكتب ونؤلف وننشر فاذا كانوا لا يطَّلعون على ما نكتب ونحن لا نكتب الاَّ لهم فما الفائدة من كتاباتنا واضاعة الوقت . ولكن اذا كان كل واحدٍ من قراء الجرائد والمجلات يفيد بما يقرأهُ بعض الذين يعرفهم من الذين لا يقرأون امكننا ادراك بعض الغرض المقصود ان لم ندركهُ كلهُ

اذا نظرنا الى امراض العين بوجه عام امكننا ان نقسمها الى قسمين كبيرين : القسم الاول يشمل الامراض التي تنشأ عن اسباب مصدرها الجسم نفسهِ لعلةٍ او علل فيهِ واهم هذه العلل الداء الزهري وهي تعتري في الغالب القسم الخلفي من العين حيث تضر باغشيتها الباطنة . والامراض التي من هذا النوع تضر باهل الشرق اكثر مما تضر باهل الغرب لان هؤلاء يقدرون الامور قدرها ويهتمون بمعالجة انفسهم ويتداركون المرض في بدء ظهورهِ فيخففون

عنهم اضرارهُ ويلجأون الى الاطباء غير معتمدين على خرافات العصور الخوالي بخلاف الجهلاء من اهل البلاد الشرقية الذين لا يبالون بما يصابون بهِ من الامراض او يركنون في معالجة انفسهم الى غير اهل العلم او يعتمدون على الخرافات الباطلة كما سنذكر ذلك. ومع هذا فلا تُعدُّ اضرار هذه الامراض الباطنة شيئاً بالنسبة الى اضرار الامراض الاخرى التي يشملها القسم الثاني

والقسم الثاني يشمل امراض العين التي تسببها العوامل الخارجية وتعتري القسم الامامي من العين. وهي الامراض التي يهمنا البحث في اسباب كثرتها في مصر والبلاد الحارة وتعذُّر شفائها وفقد البصر الذي ينشأ عنها

فلنبحث الآن في هذه الاسباب ولنشرح الطرق الواقية من كل سبب على حدتهِ .

السبب الاول والاكبر — الجهل : لا مشاحة ان الجهل هو من اقوى الاسباب في كثرة امراض العين وتعذُّر شفائها ووفرة العميان في البلاد الشرقية الحارة المقصرة في مضمار العلم والمدنية . وقد قدَّمت الجهل على كل سبب لان الاسباب الاخرى التي تساعد انتشار امراض العين في البلاد الحارة يمكن العاقل المتعلم ان يتقيها والدليل على ذلك ان العقلاء من اهل مصر والبلاد الشرقية الحارة والعدد العظيم من النزلاء الاجانب قلما يصابون بما يصاب بهِ اهل الجهل في تلك البلاد نفسها مع انهم كلهم معرضون لاسبابها على حدٍ سوى . واذا اصيب العاقل بمرض في عينهِ لا يضر بهِ مثل ما يضر الجاهل اذا اصيب بهِ لان العاقل يتداركهُ فيتخلَّص منهُ والجاهل يهملهُ فيعمى بهِ

والجهل اشبه شيء بجزع شجرة ضخم تتفرع منهُ فروع كثيرة وكل فرع يكون اصلاً لعلل وشرور كثيرة . ومن فروع الجهل

اولاً ترك الوقاية والعلاج اعتماداً على القضاء والقدر للخلاص من المرض. فاذا كان انسان معتقد انهُ لا يعدى بمرض معدٍ ولو تعرَّض لهُ اذا كان ذلك غير مقدور لهُ ويعدى بهِ ولو لم يتعرَّض لهُ اذا كان ذلك مقدوراً لم يتَّقِ المخاطر ولم يسلم منها بل يكون معرضاً للخطر في كل لحظة من حياتهِ . وفي كل دين آيات واحاديث كثيرة توجب على المرء ان يعتني بنفسهِ ولا يلقي بها الى التهلكة فيجب على ائمتهِ ان يقشعوا عن المحيطين بهم من الاميين غياهب الغباوة وظلمات الجهل وان يهدوهم سواء السبيل . الا ترى العاقل الذي يعتقد ان الوقاية من الشرور لا تتم الاَّ باجتناب اسبابها يهرب من المصاب بداء معدٍ كما يهرب من الاسد فينجو من العدوى وتراهُ اذا مرض يعتني بمعالجة مرضهِ ولذا قلما يصيبهُ من اضرار امراض العين ما يصيب اهل الجهالة

ثانياً عدم الاعتناء بالنظافة . لا يدرك الجاهل ما هي النظافة ولا يدري انها افعل الوسائط لاتقاء الامراض وشفائها فيترك غسل بدنهِ ويهمل نظافة ملابسهِ حتى تتلبد عليهِ الاقذار وتنوح منهُ الروائح الكريهة ويحوم عليهِ الذباب . وجهل الامهات يحملهنَّ على عدم الاعتناء بنظافة اولادهنَّ فيتركن الاقذار تتلبد على وجوههم وابدانهم وتسبب لهم كل علة . وكم من مرض تجلبهُ الوساخة وتبعدهُ النظافة . اما رأيت في ازقة المدن والقرى الاطفال يدبون ويترغون في التراب والاوحال والاقذارُ متلبدة على اجسامهم وملابسهم والذباب يحوم عليهم. او لم ترَ بائعة السمن كلما تلوثت اصابعها بهِ مسحتها بازارها وزوجها يحدثك واليق يسرح على ثوبهِ والقمل يدب على عنقهِ وجارتهُ في وسط دارها وابنها على قدمها يتغوط ويبول فيلتهما وبالها ثم تذر على روثهِ شيئاً من التراب وتتركهُ يجف في عرصة الدار او تدوسهُ برجلها وتطلي بهِ الارض

واذا اردت ان اعدد لك انواع القذارة وضروب الوساخة التي تصم لسماعها الاذن وتحيش النفس اقتضى لي مجلد ضخم . فكيف لا تكثر امراض العين في مثل هؤلاء القوم وكيف لا يعمون اذا اصيبوا بها . والماء الذي لا بدَّ منهُ للنظافة قد يكون في بعض الترع ممزوجاً بدقائق التراب وهذا حكم الطبيعة لا يمكننا دفعهُ ولكن في الامكان ترشيح هذا الماء حتى يصبح صافياً زلالاً صالحاً للشرب والاغتسال . غير ان الجاهل لا يفكر في شيء من ذلك بل يشرب الماء بما فيهِ من الكدر والكدر ويغتسل بهِ فيزيد طينة وجههِ بلَّة . اما رأيت ان بعض الجهلاء اذا قدمتَ لهم كأساً من ماء النيل المرشح امتنعوا عن شربها وقالوا لك هذا ماء افرنجي لا يصلح شربهُ اذ ليس لهُ طعم وخير الماء ما كان بخيرواي بكرهِ فالجهل سبب الوساخة والوساخة مجلبة للامراض ومن هذه امراض العين وهي لعدم النظافة والاعتناء بالمعالجة تأتي بالعمى لصاحبها وتسري عدواها الى المحيطين بهِ وهذه سلسلة متتابعة الحلقات لا ينبغي للانسان ان يكون فيلسوفاً حتى يتتبعها من اولها الى آخرها

ولماذا لا تكثر امراض العين في رجال مصر المتعلمين المتفننين وقلما تجد بينهم اعمى أليس لانهم يهتمون بنظافة اجسامهم وملابسهم ومساكنهم وفرشهم ولأن نساءهم يعتنين بنظافة اجسام اولادهنَّ وملابسهم ومضاجعهم. وهذا برهان حسي ودليل قاطع على ان النظافة من اقوى مقاومات امراض العين والعمى . فلماذا لا نتشبه كلنا بهؤلاء الرجال ونحذو حذوهم. ايظن احد ان النظافة تقتضي كثيراً من النفقة لا وحقك فمن من الناس لا يمكنهُ الحصول على شيء من الماء والصابون وعلى زير من الفخار ليرشح بهِ الماء. حتى ان سكان بعض المدن الكبيرة

في مصر كالقاهرة والاسكندرية وطنطا لم يعودوا في حاجة الى آلات للترشيح لان مياه الآبار الارتوازية التي كثر الآن حفرها صافية نقية لا تحتاج الى ترشيح واذا كانت شركات المياه في احدى المدن المذكورة تستقي من النيل فهي تعتني بترشيح مائه

ثالثاً . طب الركة : وهذا ضربٌ آخر من ضروب الجهل كثيراً ما يكون سبباً في ضياع العمر والبصر فقد ترى كثيرين من الجهال اذا اصيب احدهم برمدٍ لا يستشير لمعالجته طبيباً خبيراً بطب العيون بل يعتمد على اشارات الدجالين والعطارين والعجائز ويسلم امرهُ لهم ويضع في عينهِ كلما يصفونهُ لهُ من الذرور والمراهم وما شاكلها وهي ان لم تعم العين باسهل طريقة تعيقها عن الشفا وتكون احياناً كثيرة سبباً في تولد السحابات على القرنية وضمور المتحمة الى غير ذلك من المضاعفات التي تضر بالعين ضرراً كبيراً . ولو اردت ان اعدد للقارىء انواع العقاقير والمواد الكاوية وغير الكاوية المتباينة الانواع التي يصفها الدجالون والعطارون وتصادق على استعمالها كل حيزبون لضاق بي المقام ولأخذ العجب من القارىء كل مأخذ ولكن على سبيل الفكاهة آتي على ذكر بعض تلك المواد فمنها مسحوق اللؤلؤ والزمرد والياقوت وعصارة الطاطم والزنجبيل وعصارة البصل وجلد الفسيخ وروث البقر والحمير وبول البغال والبصل المسلوق الى غير ذلك من المواد التي يضحك ذكرها العاقل ويبكيهِ

هذا من قبيل المعالجة بالعقاقير اما العمليات الجراحية التي يجيز الدجالون والدجالات عملها فحدث عنها ولا حرج ولاسيما عملية الشعرة . فكم وجه يشوهُ بهذه العمليات وكم ملتحمة تضمر وكم جفن يقصر لكثرة ما قُصَّ من جلدهِ حتى لا يعود يغطي العين لانهُ لا ينطبق على الجفن الاسفل فينتج عن ذلك جفاف الملتحمة والقرنية ولا تلبث هذه ان تقترح لتعرضها للعوامل الخارجية وقصور الجفن عن سترها من غبار الهواء ولا تزال تقرحاتها تتزايد حتى يفقد البصر

اما الطرق التي يتخذها الدجالون لعمل هذه العمليات فما يقشعر منهُ البدن لانها كلها طرق وحشية بربرية فاحدثها الوساخة وقص الجلد وتمزيقهُ حتى انهُ كثيراً ما يصاب المريض الذي يوقعهُ سوء حظهِ بين ايدي اولئك القتلة بغنغموني في اجفانهِ او بالحمراء التي تمتد الى دماغهِ وتذهب بحياتهِ . وكيفية عملية الشعرة عند الدجالين والدجالات هي ان تؤخذ طية من جلد الجفن العلوي وتوضع في شق قصبة شديدة المرونة فيلزم الشق طية الجلد وتبقى القصبة مدلاة فوق العين حتى يعمل الفنان بالجلد المضغوط بشق القصبة فيسود لونهُ ويسقط منفصلاً عن باقي جلد الجفن وتسقط القصبة معهُ

هذه هي عقاقير الدجالين وطرق عملياتهم في وادي النيل ونحن في القرن العشرين وتكاد

لا تخلو قرية من طبيب معهُ شهادة قانونية يمكنهُ القيام مقام الدجال . ولو كان هؤلاء الدجالون يكتفون بالقليل من الرزق ومتاع الدنيا مقابل ما يأتونهُ من ضروب الجنايات لالتمسنا لهم بعض العذر وقلنا ربما كانوا في فقر مدقع وهم يسعون وراء القوت وقد يدفع الجوعُ الانسان الى قتل اخيهِ . ولكنهم مع ما يقتضونهُ من الاعمار ويمزقونهُ من الاجفان والاشفار ويطمسونهُ من الابصار لا يرحمون ولا يشفقون في جمع الدينار

وقد ادرجت في جريدة المقطم في اوائل شهر اوغسطس حادثة الدجالة الشهيرة ام نخلة التي هتكت اجفان فتاة بعملية الشعرة بطريقة القصبة التي اتيت على ذكرها. وقد قطعت هذه الجانية من جلد الجفنين العلويين جانباً عظيماً حتى انهما لم يعودا ينطبقان فتشوه وجه الفتاة وصار منظرهُ قبيحاً واصيبت هذه المسكينة بمرض بسبب قصر جفنيها العلويين لجفاف الملتحمة فضمورها فتقرح القرنية فتلفها فالعمى . أليست هذه الجناية مما يقضي بالعجب ونحن تحت ظل حكومة عادلة ذات قوانين صارمة . واعجب من ذلك هو ان تلك الفتاة المظلومة لم تكن مصابةً بداء الشعرة مطلقاً فقد وجدتُ بعد البحث المدقق ان كل اهدابها متجهة الى الامام والاعلى كما هي الحالة الطبيعية . واعجب من هذا وذاك ان تلك الدجالة الجانية اخذت من ابي الفتاة في مقابل ذلك الفعل الفظيع ثمانية جنيهات حتى الزمتهُ الى بيع ما في دارهِ

ولا شك ان وجود مثل هؤلاء الدجالين ضربة قاضية على ابصار المصريين ويجدر برجال الحكومة ان يبحثوا عنهم ويعاقبوهم على فظائعهم لينقطع دابرهم ويستريح الناس من شرهم وهم على ما يقال كثار العدد ومنتشرون في البلاد انتشار الوباء

الست ترى معي ان الجهل هو الذي يدفع البسطاء الى مشاورة الدجالين والعمل بمشورتهم والاكتحال بكاوياتهم التي تطمس البصر والتماس العمى من عملياتهم الجراحية. وهل بقي عندك ذرة من الريب في ان مثل هذه الامور لا تتناقص في بلاد مصر وما شاكلها من بلاد الشرق الاَّ باتساع نطاق التعليم . لان الولد متى شب في المدارس وتعلم وتهذب عرف ان لكل فنٍّ رجالاً ولكل صناعة صناعاً وادرك خلافاً للجهلاء انهُ لا يجوز ان يكلَّف العطار بتطبيب العيون والدجال باعمال الجراحة كما لا يجوز ان يكلف المصور بعمل الاحذية والنجار بخياطة الثياب والكاتب ببناء البيوت والعريجي برصد الافلاك . ولكن كم سينقضي من الاعوام حتى نصل الى هذا الحد من الارتقاء والسواد الاعظم من سكان الشرق اميون لا يحسنون القراءة حتى اليوم ستأتي البقية

الدكتور ابرهيم شدودي
طبيب العيون